من كناشة النوادر

(٣)

للأستاذ عبد السلام هارون

سارة :

نسمي بناتنا، أو ننادیهن أحياناً باسم «سارّة» بتشديد الراء فهل نعد هذه التسمية خطأ ؟

الأمر ذو وجهين . فإن قصدنا تسمية حديثة لاعلاقة لها بالاسم التاريخي القديم الذي كان علماً على الزوجة الأولى لأبينا إبراهيم عليه السلام، والدة إسحاق ويعقوب ، عددنا ذلك صواباً ؛ إذ هي اشتقاق عربي أصيل من قولهم ؛ سرته تسره فهي سارّة .

ولكن حينما نقرأ ذلك الاسم التاريخي في مرجع من المراجع أو نحاول ضبطه، أو نسمي بناتنا بهذا الاسم قدوة أو تيمنا به فإنه يكون من الخطأ بمكان أن نشدد الراء ، بل ننطقها خفيفة كما هو ضبطها المنصوص عليه .

وقد وقع في بعض كتب التراث تحريف في كتابة هذا الاسم، في معجم لسان العرب في مادتي (سقم ، وهجر) إذ ضبط ضبط قلم بتشديد الراء، والصواب تخفيفها كما ورد في صحيح البخاري في كتاب الأنبياء في باب قول الله : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » : وهو الحديث رقم ٤٥٣ من الألف المختارة . وهي سارة بنت هاران ملك حران ، كما في شروح البخاري ؛ وكان اسمها في بادىء الأمر « ساراى » .

جاء في سفر التكوين الأصحاح ١٧ : « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك ، لاتدعو اسمها ساراى، بل اسمها سارة » . وفي حواشي سفر التكوين أن معنى هذا الاسم الجديد — أعني سارة — هو الرئيسة .

وقد وجدت من الشواهد على ضبط اسمها ما سجله جرير في ديوانه ٢٤٣ والنقائض ٩٩٤ وابن سلام ٣٤٨ والطبري ١ : ٣٧٩ ومعجم البلدان في رسم (الروم) :

ويجمعنا والغرّ أولاد سارة
أب لانبالي بعده من تعذرا [١] .

أبونا خليل الله والرب ربنا
رضينا بما أعطى الإله وقدّرا

ويعني بأولاد سارة أبناء ولدها إسحاق ، ويزعم بعض الأخباريين أن الفرس من أبناء

(*) ألقي البحث في الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٧ من فبراير ١٩٨٢ م .

(١) أي تأخر وجاء من بعده .

إسحاق . وقال ياقوت عند إنشاد الشعر : إن جريرا كان يفتخر على اليمن بالفرس والروم ويقول : إنهم من ولد إسحاق . وأما اليمن القحطانيون فلا يرجعون فى نسبهم إلى إبراهيم .

المـد والجزر :

من المعروف أن المد والجزر ظاهرة جغرافية طبيعية تنشأ من عدم تساوى جاذبية كل من القمر والشمس للأرض فى أجزائها المختلفة ، وأن النصف المواجه للقمر ينجذب ماؤه أكثر من النصف الآخر ، وذلك لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس الشديدة البعد ، ويتأرجح المد والجزر طبقاً لتغير مواقع الشمس والقمر من الأرض بالتباعد أو التلاقى أو الانحراف على مدار الشهر . وبتلاقى القمر والشمس على مستوى واحد من الأرض — كما يحدث فى أول الشهر ومنتصفه — يحدث المد الأعظم .

ولكن فى نظرة بعض قدماء العرب أن هذا ناجم من تأثير بعض الملائكة ... يذكر ابن فارس (— ٣٩٥) فى مادة (قمس) هذا النص : « وقالوا فى ذكر المد والجزر : إن ملكا قد وكل بقاموس البحر كلما وضع رجله فاض ، فإذا رفعها غاص » .

فإذا ارتقينا إلى المؤرخ الجغرافى زكريا ابن محمد القزوينى صاحب عجائب المخلوقات (٦٠٥ — ٦٨٢) فإننا نجد محاولة علمية مقاربة إذ يقول فى ص ١٠١ :

« وأما مد بعض البحار فى وقت طلوع القمر فزعموا أن فى قعر البحر صخوراً صلدة وأحجاراً صلبة ، وإذا أشرق القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح أشعته إلى تلك الصخور والأحجار التى فى قرارها ، ثم انعكست من هناك متراخية ، فسخنت تلك المياه وحمت ولطفت فطلبت مكاناً أوسع وتموجت إلى ساحلها ودفع بعضها بعضاً وفاضت على شطوطها ، وتراجعت المياه التى كانت تنصب إليها إلى خلف ، فلا تزال كذلك مادام القمر مرتفعاً إلى وسط سمائه ، فإذا أخذ ينحط سكن غليان تلك المياه ، وبردت تلك الأجزاء وغلظت ، ورجعت إلى قرارها ، وجرت الأنهار على عادتها » .

فقد أرجع القزوينى التأثير إلى تسخين القمر لصخور البحار . وفاته أن تسخين الشمس فى رائعة النهار أشد وأقوى . فهذا غلط ظاهر وليس الأمر مبنياً على التسخين والتبريد ، وإنما هو نظام الجاذبية الفلكية .

الأنهـار المقلوبة :

جاء فى تنبيه المسعودى (١٥١) عند الكلام على نهر آلُس : وتفسير آلس بالعربية : نهر الملح . وهو نهر مقلوب يجرى مما يلى الجنوب مستقبلا للشمال ، كنيل مصر ومهران السند ، ونهر أنطاكية المعروف بالأُرُنْد . وماعدا ذلك من الأنهار الكبار فصبها كلها من الشمال

إلى ناحية الجنوب ، لارتفاع الشمال على الجنوب وكثرة مياهه .

وهذا الحكم الخاص بالدنيا القديمة قد يصدق تمام الصدق على الدنيا الجديدة وأنهارها العظام ، فالمسيسبى فى أمريكا الشمالية وباراجواى وأورجواى فى أمريكا الجنوبية يصبان فى الجنوب ، على حين يصب نهر الأمازون فى الشمال ويعد بذلك فى وجهة نظره نهراً مقلوباً .

وأما تعليله بارتفاع الشمال على الجنوب فهو موضع نظر بلا ريب .

الفحم الحجرى أو الصخرى :

إنما عرفناه حديثاً ، عند اختلاطنا بالإنجليز والأوربيين ، ولعل أعظم مناجمه فى بلدة نيوكاسل بانجلترا . وقد عرفته العرب

جاء فى معجم البلدان عند ذكر إقليم أسبرة بأقصى بلاد الشاش مما وراء النهر . مانصه : وهى بلاد يخرج منها النفط والفيروزج والحديد والصفر والذهب والآنك ، أى الرصاص . وفيها جبل أسود حجارته تحترق كما يحترق الفحم يباع منه حمل بدرهم وحملان فإذا احترق اشتد بياض رماده فيستعمل فى تبييض الثياب . ولا يعرف فى بلدان الأرض مثل هذا . قاله الإصطخرى .

ومثل هذا النص فى عجائب المخلوقات (١٢٤) .

التبـان :

التبان ، كرمان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة يكون للملاحين . وهو مايعادل ما يسمى فى اللغة الدخيلة « المايوه » ولفظنا العربى أجدر بالحياة منه وأولى أن تحمل العامة عليه .

جاء فى النجوم الزاهرة ١٠ : ١٦٩ أن السلطان المظفر بن الناصر قلاوون كان إذا لعب مع الأوباش يتعرى ويلبس تبان جلد ويصارع معهم ويلعب بالرمح والكرة .

وكلمة الأوباش قال الأصمعى فيها : يقال بها أوباش من الناس وأوشاب من الناس وهم الضروب المتفرقون .

المراكبى :

استعمال هذا اللفظ بمعنى الملاح فقط تأباه اللغة الأصيلة لأن له مدلولا حضاريا قديماً ، ولأن المركب لفظ يشمل كل ما يركب من فرس أو بغل أو فيـل أو سفينة .

ورد فى الأغانى ١٨ : ١٧٧ فى ترجمة عريب المغنية : كانت عريب لعبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد ، وهو الذى رباها وأدبها وعلمها الغناء . ثم يقول :

حدثنى من أثق به عن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبى أن أم عريب تسمى فاطمة .

وكان هذا المراكبي متعهداً كذلك لمراكب المهدى والد هارون الرشيد من قبل . جاء فى تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٠ : وذكر عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب قال : لما صرنا إلى ما سبذان دنوت إلى عنانه — يعنى عنان فرس المهدى — فأمسكت به ومابه علة ، فوالله ما أصبح إلا ميتاً .

البلهارسيا :

المرض الذى كشفه « الطبيب الألمانى « بلهارس » سنة ١٨٥١ .

قد عرفه العرب قديماً وعبروا عنه بالحيض. جاء فى الخزانة ٤ : ٢٩٧ : « وأبو مكعت هو الذى كان يحيض فى الجاهلية » . . وهل يحيض الرجال ؟ !

لاريب أن هذه عبارة عن بول الدم ، وهو الظاهرة التى يتميز بها مرض البلهارسيا. وقد عرف العرب أيضاً علة هذا المرض الذى تنتقل عدواه بالماء . وجدت فى معجم ما استعجم ١٣٢٨ هذا النص الذى يدل على علاقة هذا المرض بالماء ، وذلك عند الكلام على غدير يقال له رواوة : «ثم يفضى إلى غدير الطفيتين ، وهو من أعذب ماء يشرب ، إلا أنه يبيل الدم » .

ومن البديهى أن يقال علمياً إن هذا الماء كان موبوءاً بجرثومة هذا المرض .

المرأة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى بالنساء خيراً ، وليس فينا من لايحفظ قوله البارع : « يا أنجشه رفقا بالقوارير » .

فمن أروع ماجاء فى الحث على حسن صحبة المرأة مارواه المقدام بن معد يكرب. أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما يعلق على يدها الخير ، وما يرغب واحد عن صاحبه حتى يموتا هرما » .

قال الحربى فى تفسير « مايعلق على يدها الخير » يقول : من صغرها وقلة رفقها . والمراد حث أصحابه على الوصية بالنساء والصبر عليهن ، فقد كان أهل الكتاب يفعلون ذلك .

وفى هذا الحديث إباحة للقدوة الصالحة مهما يكن مصدرها .

سجن الطرارات :

الطرار : فعال من الطر وهو الاختلاس . وقد كان للنساء الطرارات سجن خاص جاء فى أخبار العلماء بأخبار العلماء للقفطى ص ٢٦٨ فى ترجمة أبى على بن أبى الخير الطبيب أنه كُبس وعنده امرأة من الخواطىء المسلمات ، فأقر على جماعة من الخواطىء المسلمات أنهن كن يأتينه لأجل دنياه ، فخرجت الأوامر بالقبض على النساء اللواتى ذكرهن ، فقبض عليهن وأودعن سجن الطرارات . قد كان لهن سجن خاص .

التبكير بالتعليم :

كان أسلافنا يولون التعليم اهتماماً كبيراً ، ويحملون أبناءهم عليه وهم فى سن مبكرة جداً . فمن ذلك ما روى أبو الفرج فى الأغانى ١٦ : ٣٧ عن أشجع السلمى الشاعر قال : دخلت على محمد الأمين ، حين أجلس مجلس الأدب للتعليم ، وهو ابن أربع سنين وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدته :

ملك أبوه وأمه من نبعة
منها سراج الأمة الوهاج

شربت بمكة من ربى بطحائها
ماء النبوة ليس فيه مزاج[1]

فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم .

وجاء فى اختصار علوم الحديث لابن كثير ص (١٢٠) : « وينبغى المبادرة إلى إسماع الولدان الحديث النبوى . والعادة المطردة فى أهل هذه الأعصار وما قبلها بمدد متطاولة أن الصغير يكتب له حضور إلى تمام خمس سنين من عمره ، ثم بعد ذلك يسمى سماعاً » .

وفى الكتاب أيضاً عن أبى عمرو بن الصلاح : « وبلغنا عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى أنه قال : « رأيت صبياً ابن أربع سنين قد حمل إلى المأمون قد قرأ القرآن ونظر فى الرأى ، غير أنه إذا جاع بكى » .

الاعفاء من الجندية :

تختلف نظمه وقوانينه باختلاف البلاد وأنظمتها فى الوقت الحاضر .

ومن غرائب ما سجلته كتب التراث ما أورده ياقوت فى معجم البلدان عند ذكر صقلية وقصبتها مدينة بلَرْم : عن ابن حوقل قال : « والغالب على أهل المدينة المعلمون ، فكان فى بلرم ثلاثمائة معلم فسألت عن ذلك فقالوا : إن المعلم لا يكلف الخروج إلى الجهاد عند صدمة العدو » .

والتاريخ هو التاريخ .

قسوة العشارين :

جاء فى كتاب الموفقيات للزبير بن بكار ص (٦٢٥) والإصابة ص (٣ : ١٢) عن هشام بن الكلبى عن أبيه أن عمر خرج تاجراً فى الجاهلية مع نفر من قريش ، فلما وصلوا إلى فلسطين قيل لهم : إن زنباع ابن روح بن سلامة الجذامى يعشر من يمر به ، للحارث بن أبى شمر. قال : فعمدنا إلى ما معنا من الذهب فألقمناه ناقة لنا حتى إذا مضينا نحرناها وسلم لنا ذهبنا ، فلما مررنا على زنباع قال : فتشوهم . ففتشونا فلم يجدوا معنا إلا شيئاً يسيراً ، فقال : اعرضوا على إبلهم . فمرت به الناقة بعينها فقال : انحروها . فقلت : لأى شىء ؟ قال : إن كان فى بطنها ذهب ، وإلا فلك ناقة غيرها ، وكُلْها قال : فشقوا بطنها فسال الذهب ،

(١) يعنى النبعة .

فأغلظ علينا فى العشر ونال من عمر ، فقال عمر فى ذلك :

متى ألق زنبـاع بن روح ببلدة
لى النصف منه يقرع السن من ندم
ويعلم بأن الحى —حىّ ابن غالب—
مطاعينُ فى الهيجا مضاريب فى القيم

فهذا عمر — وهو من هو— ينعى على هؤلاء العشارين جورهم فى ذلك الزمان السحيق ، ويستعلن غضبه وتوعده لهم .

الحيل الحربية :

من الحيل الحربية المعاصرة كسوة الدبابات والسيارات والمدافع ، بله الجنود والمعدات بأغصان الأشجار للتخفى من عيون الأعداء .

ولهذا جذر فى القديم يتمثل فيما رواه صاحب خزانة الأدب ص (٢ : ٢٩٩) فى خبر زرقاء اليمامة : أن حسان بن تبع ساق إليها جيشاً من قبيلة طسم ، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال منها صعدت الحصن الذى يقال له : « حصن الكلب » فنظرت إلى ذلك الجيش وقد استتر كل رجل بشجرة تلبيساً عليها ، فقالت :

أقسم بالله لقـــد دب الشجر
أو حمير قد أخذت شيئاً تجر

فهذا سبق عربى قديم فى الحيل الحربية عند أسلافنا العرب .

الدبابات :

التسمية قديمة جداً ، والمضمون مختلف . ولعل أقدم نص وردت فيه ، هو ما كان فى حصار الطائف إذ يقول المؤرخون وكتاب السير : « دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه » .

والدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يُرْمون به من فوقهم .

والتسمية الحديثة موفقة ، تعبر عن المعنى المعاصر تعبيراً دقيقاً . وما أجدرنا أن نتريث فى التعبير عن مستحدثاتنا فإن من المقطوع به أن نوفق أو نقارب ، إذا نقبنا فى قديم تراثنـا .

البريـد الصوتى :

كان ذلك فى غزوة الحديبية سنة ست من الهجرة .

جاء فى امتاع الإسماع ص (٢٧٨) : « وبلغ أهل مكة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فراعهم ذلك وتشاوروا ، ثم قدّموا عكرمة ابن أبى جهل ، أو خالد بن الوليد على مائتى فارس إلى كراع الغميم (بين مكة والمدينة) واستنفروا من أطاعهم من خلفاء قريش من بنى كنانة (كانوا قد تحالفوا تحت جبل يقال له : حُبشىّ) وأجلبت ثقيف معهم

(أى انضمت) ووضعوا العيون على الجبال، وهم عشرة رجال يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت: «فعل محمد كذا وكذا» فيردد من بعده قوله وهكذا، حتى ينتهى ذلك إلى قريش.

وهذا سبق حضارى قديم، له نظير معاصر فى الحروب عندنا بالتخاطب بالإشارة بالأعلام التى تطورت إلى النظام اللاسلكى والرادارى.

مقاومة الجراد:

ظاهرة حضارية أصبحت ذات شأن كبير فى عصرنا، وهى الآن داخلة فى نطاق التعاون والتنظيم الدولى. والجراد آفة خطيرة تقضى على الزروع والثمار إن لم تقاوم مقاومة جادة أهلكت الحرث والزرع والغلات.

جاء فى تاريخ ابن الوردى فى حوادث سنة ٧٤٨ ج ٢ : ٣٤٥ : «وفى المحرم ظهر بين منبج والباب جراد عظيم من بزر السنة الماضية فخرج عسكر من حلب، وخلق من فلاحى النواحى الحلبية نحو أربعة آلاف نفس لقتله ودفنه، وقامت عندهم أسواق، وصرفت عليهم من الرعية أموال».

وهذا النص يظهرنا على ما كان من التعاون المتكامل يشترك فيه الجيش مع الفلاحين، وتساق فيه التبرعات الشعبية، وتنظم له حملة شاملة تقام فيها الأسواق المنظمة، ولا ينتهى فيه الأمر إلى إبادة الجراد، بل يشفع بذلك بدفنه مبالغة فى الإبادة، واحتراساً من فقس البيض. وفى ذلك يقول ابن الوردى:

قصد الشام جراد
سن للغلات سنا
فتصالحنا عليه
وحفرنا ودفنا

وضع المجمرة تحت الثياب:

شهدنا جداتنا وأمهاتنا فيما مضى، وهن يحرصن على (البخور) فى أمور شتى أعلاها شأناً هو دفع العين وشر الحاسد فيما يزعمن ومنها وضع المجمرة تحت ثياب الصبيان وحثهم على معاودة الخطو فوقها إن سبعاً وإن عشرا؛ للتطيب أحياناً، ولدفع العين واتقاء شر الحسود حينا آخر.

ومن طريف ما روى فى كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ٢٠٧ لابن الطقطقى فى خبر مصرع أحمد بن يوسف كاتب المأمون قال:

وكان سبب موته أنه دخل يوماً إلى المأمون والمأمون يتبخر، فأخرج المأمون المجمرة من تحته وقال: اجعلوها تحت أحمد، تكرمة له. فنقل أعداؤه إلى المأمون أنه قال: ما هذا البخل بالبخور هلا أمر لى ببخور مستأنف؟ فاغتاظ المأمون لذلك وقال: ينسبنى إلى البخل وقد علم أن نفقتى فى كل يوم ستة آلاف دينار؟ وإنما أردت إكرامه بما كان تحت ثيابى... ثم دخل عليه

أحمد بن يوسف وهو يتبخر مرة أخرى فقال المأمون : اجعلوا تحته فى مجمرة قطع عنبر ، وضعوا عليه شيئاً يمنع البخار أن يخرج ، ففعلوا ذلك ؛ فصبر عليه حتى غلبه الأمر فصاح : الموت الموت . فكشفوا عنه وقد غشى عليه ، فانصرف إلى منزله فمكث فيه شهوراً عليلا من ضيق النفس حتى مات بهذه العلة .

الوزير والكاتب :

نلحظ فى ثنايا كتب التاريخ اضطراباً فى التفرقة بين هذين اللقبين ، والملحوظ أيضاً أنه لم يكن فى صدر الإسلام ولا فى عهد الدولة الأموية من يحمل لقب الوزير ، وكانوا كلهم كتابا حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية وجدنا أول وزير فيها هو أبو سلمة حفص ابن سليمان الخلال الذى كان يقال لـــه « وزير آل محمد » . كما كان يقال لأبى مسلم الخراسانى « أمين آل محمد » .

وفيه يقول سليمان بن المهاجر البجلى عند مصرعه :

إن المساءة قد تسر وربما
كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيرا

ويسرى نظام الوزراء ، ومعه نظام الكتاب إلى عهد المأمون ، فقد كان له وزراء وكتاب وكان آخر وزرائه هو محمد بن يزداد بن سويد . يقول المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ : « ولم يكن يسمى بين يديه أحد من كتابه وزيراً ولا يكاتب بذلك ، فلأجل ذلك ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا فى الوزراء . ورأيت من صنف فى أخبار الوزراء والكتاب كأبى عبد الله محمد بن داود ابن الجراح ، ومحمد بن يحيى الصولى ، ومحمد ابن عبدوس الجهشيارى والمعروف بابن الماشطة الكاتب ، منهم من عدهم فى الوزراء ، ومنهم من لم يعدهم للسبب الذى بينا .

الجاحظ وزواجه وولده

سألنى ويسألنى كثيرون عن أسرة الجاحظ وهل كانت له زوجة أو ولد ؟

وقد عثرت بآخرة على نص فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٥٤ فى أثناء رسالة الجد والهزل التى وجهها إلى محمد بن عبد الملك الزيات .

ويبدو أن الجاحظ كان قد تزوج فى سن عالية بعد أن كان قاعدا عن الزواج ، فنعى عليه ابن الزيات ما صنع من ذلك فقال مجيبا فى الرد عليه :

وما كان عليك مع كبر سنى وضعف ركنى أن يكون لى — يعنى الولد — ريحانة أشمها ، وثمرة أضمها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببا ، وإلى التلهى به سلما .

ويقول أيضا :

دع عنك كل شىء ، ما كان عليك أن يكون لى ولد يحيى ذكرى ، ويحوى ميراثى

ولا أخرج من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله مراء يرصدنى ، وابن عم يحسدنى ، ولا يرتع فيه المعدّلون فى زمان السوء .

وكفى بهذا النص شاهدا :

تهجين الحيوان :

كما يحدث التهجين فى النبات والفواكه كما حدث عندنا فى مصر من إدخال أنواع الفواكه الحمضية منذ عهد ليس بالبعيد ، حدث مثل هذا التهجين للحيوان فى عصور سحيقة .

إذ يذكر المسعودى تاريخ دخول الجاموس إلى بلاد الشام ، ويقول فى التنبيه والإشراف ٣٠٧ : « وقيل إن بدء الجواميس بالثغر الشامى وسواحل الشام من جواميس كانت لآل المهلب ببلاد البصرة والبطائح والطفوف فلما قتل يزيد بن المهلب نقل يزيد بن عبد الملك بن مروان كثيرا منها إلى هذه النواحى .

وكانت خلافة يزيد بن عبد الملك ما بين سنتى ١٠١ — ١٠٥ .

وذكر المسعودى قولا آخر فى خلافة المعتصم ٢١٨ — ٢٢٧ أنه بعد تغلبه على الزُّطّ أجلاهم وأنزلهم بلاد خانقين وجلولاء من طريق خراسان ، وبلاد عين زربة من الثغر الشامى ، ومذ يومئذ صارت الجواميس بالشام ولم تكن تعرف هنالك .

عض الانسان للحيوان :

أن يعض حيوان إنسانا ذلك أمر معروف ليس فيه من وجوه الغرابة وجه ، ولكن أن يعض إنسان عاقل حيوانا أمر تلفه الغرابة وتحتويه الندرة . يقول الآمدى فى المؤتلف ١٨٨ فى ترجمة ملاعب الأسنة أوس بن مالك الجرمى الشاعر الفارس وكان أوس شاعرا ، عضت اللبؤة منكبه فعض هو بأنفها وقال :

أعض بأنفها وتعض ركنى
كلانا ، باسل بطل شجاع

فلولا أن تداركنى زهير
بنصل السيف أفنتنى السباع

لغويات :

السمنة ، بكسر السين لا تعرفها اللغة وإنما تعرف السِّمَن والسَّمانة . وفى حديث أبى هريرة : « خير أمتى القرن الذى أنا فيهم . ثم الذين يلونهم ، ثم يظهر فيهم قوم يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا »

وتعرف اللغة السُّمنة بضم السين لكن بمعنى الدواء الذى يتخذ للسمن ، تسمن به المرأة أو غيرها .

المقفص :

من أنواع النقوش فى الثياب التقفيص ، وهو كما قال الخفاجى فى شفاء الغليل ١٩٥ : نقش فى الثياب بالطول والعرض . يعنى أن خطوطه يقطع بعضها بعضا كما تتقاطع

قضبان القفص بالطول والعرض . وفى ذلك يقول القائل :

لم أنس قول الوُرْق وهى حبيسة
والعيشُ منها قد أقام منغّصا
قد كنت ألبس من غصونى أخضرا
فلبست منها بعـــد ذاك مقفّصا

يصف الحمام وقد كان طليقا بين أفنان الشجر ، ثم عاد به الأمر إلى الأسر بين قضبان الأقفاص .

وما أجدر هذا اللفظ « المقفص» الدقيق الدلالة ، أن يستعمل فى مقابل الكلمة الإفرنجية « كاروه» و«كاروهات » .

ولهذا الاشتقاق نظائر فى العربية ، كقولهم المسهم : الذى فيه نقوش كالسهام ، والمرجّل الذى فيه صور المراجل جمع مرجل ، والمدنر : فيه صور الدنانير ، والمضلع : الموشى بمثل الضلوع ، والمبرج الذى فيه صور البروج والمدرهم والمصلب ، الذى فيه كالصليب والمفوف الذى فيه بياض وخطوط بيض من الفُوف ، بالضم ، وهو البياض يكون فى أظفار الأحداث .

تجوهرت الأمور :

تجوهرت الأمور : وضحت وتكشفت ولم أجد هذه الكلمة فى معجم ، وكم ذا من الألفاظ الفصيحة العربية التى لم ترصدها المعاجم .

وجدت فى «المؤتلف والمختلف» للآمدى ص ١٩ فى ترجمة أعشى عكل يقول هذا الأعشى فى هجاء بلال ونوح ابنى جرير الشاعر :

سألت الناس أى الناس شر
وأخبث إذ تجوهرت الأمور
وألأمُ أولاً وأدقُّ فعلا
فقالوا : أسرةٌ فيهم جرير
إذا سئل الورى عن كل خزى
أشار إلى بنى الخطَفى مشيرُ

المتنبح :

نقرؤها كثيرا فى الصحف فى مقام النعى لكبار رجال الدين المسيحى فنظنها حديثة أو استعمالا معاصرا .

والكلمة قديمة جدا ترجع إلى ما قبل سنة ٤٥٥ وهى سنة وفاة ابن بطلان . وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ، وكان من نصارى الكرخ . قال ابن أبى أصيبعة ص٣٢٨ عند كلامه على كتابه «دعوة الأطباء» : « ونقلت من خط ابن بطلان وهو يقول فى آخرها : فرغت من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب ، المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنبح قسطنطين ، بظاهر القسطنطينية فى آخر أيلول من ســـنة تسع وخمسين وألف » هذا توله ، ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى : من ســـنة خمسين وأربعمائة ، والقول

فى تأصيل هذه الكلمة أمر يحتاج إلى بحث طويل .

الحقير النافع :

ليس مادة من المواد ولا مالا من الأموال أو شيئا مهملا لا يؤبه له وإنما هو لقب لطبيب لا يعرف التاريخ له اسما ، كان من أهل مصر يهودى النحلة فى زمن الحاكم بأمر الله ، وكان جراحا حسن المعالجة يرتزق بصناعة مداواة الجراح فقط ، وكان فى غاية الخمول يقول ابن أبى أصيبعة ٥٤٩ : واتفق أن عرض لرجل الحاكم عقر أزمن ولم يبرأ . وكان ابن مقشر طبيب الحاكم والحظى عنده وغيره من أطباء الخاص المشاركين له يتولون علاجه ، فلا يؤثر ذلك إلا شرا فى العقر فأحضر له هذا اليهودى المذكور ، فلما رآه طرح عليه دواء يابسا فنشفه ، وشفاه فى ثلاثة أيام . فأطلق له ألف دينار ، وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع ، وجعله من أطباء الخاص .

الطرطور :

كلمة من صميم العربية ، وأخذها الفرس والترك لفظا وملبسا من العربية ، وكم لبس الفرس والترك من الطراطير ، ولاسيما بعض أصحاب الطرق الصوفية من المولوية والبكتاشية ولم ترد هذة الكلمة فى المعجم الوسيط ، وهى جديرة أن تثبت فيه .

جاء فى اللسان : « والطرطور : الوغد الضعيف من الرجال ، والجمع الطراطير وأنشد :

قد علمت يشكر من غلامها
إذا الطراطير : اقشعرّ هامها

ورجل طرطور ، أى دقيق « طويل » ثم يقول : والطرطور : « قلنسوة للأعراب طويلة الرأس » .

وجاء فى القاموس : « والطرطور : الدقيق الطويل ، والقلنسوة تكون كذلك والوغد الضعيف » .

أما استينجاس فى المعجم الفارسى العربى ٨١٢ فيرمزله بالحرف (A) الدال على اقتراضه من العربية ، وفسّره بعين ماجاء فى اللسان ، وزاد عليه أنه يطلق أيضا على الضعيف الدقيق من معزى الجبال وتيوسها » .

وقد جرت هذة الكلمة فى لغتنا المعاصرة بمعنى الرجل الذى ليس له حل ولاعقد ، والذى لايعبأ به ولا بمكانه بين القوم . وهو مجاز صادق .

كلمات موءودة :

لعل قولهم : اللغة كائن حى من أصدق القضايا المسلم بها . فى جميع اللغات كلمات تحيا ، وكلمات تموت ، والبقاء للأصلح .

ومن الكلمات التى وئدت فى العصور الحديثة كلمة « الجراثيم» إذ تغير مدلولها

الواسع وانحرف إلى مجرى هو غاية فى الضيق ، انحرافا من الجمال إلى نهاية القبح والشناعة .

فالجرثومة فى فجرها اللغوى تعبير جميل عن أصل كل شىء ومجتمعه ، والجرثومة ما اجتمع من التراب فى أصول الشجر.. وفى حديث ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها : كانت فى المسجد جراثيم يراد بذلك أنه كان فيه أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من تراب أو طين ، أى إن أرض المسجد لم تكن مستوية . فإذا حاولنا أن نفهم هذا النص بالمفهوم العصرى أخطأنا المعنى المراد ، وفهمنا أن الأرض كانت موبوءة بجراثيم أمراض ، إذ أصبح مفهوم هذه الكلمة فى عصرنا لا يمكن أن يتعدى هذا المعنى الطبى الذى يعم البروتوزوا والفيروسات ، والفطر والبكتريا ، كما يقولون

وكذلك حين نصغى إلى قول جرير فى مدح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان :

يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلا قديما وفى المسعاة تقديم

قوم أبوهم أبو العاصى وأورثهم
جرثومة لا تساويها الجراثيم

ولا يمكن أن تفسر هذه الجراثيم التى تعنى الأصل السامىَ والعرق الكريم بالمفهوم اللغوى المعاصر .

وفى الشعراء الأمويين من كان يدعى «جرثومة» عثرت على اسمه فى كتاب المصون للعسكرى ٦٤ ، وقد كان هذا الشاعر موضع إعجاب من الخليفة عبد الملك بن مروان .

ومن ذلك أيضا كلمة « التبجح » فقد أصبح مفهومها العصرى منحصرا فى الدلالة على الجرأة المستهجنة ، وسوء الأدب وسلاطة اللسان . ولكن مدلولها الأصيل هو الفرح ، والشعور براحة النفس ، والفخر بما صار إليه المرء من منزلة ، كل ذلك فى نطاق الأدب والرضا ، ومنه حديث أم زرع : « وبجحنى فبجحت » ، أى فرحنى ففرحت وعظمت نفسى عندى .

فى ظلال النحو :

قالوا : من موانع الصرف فى الصفة أن تكون على وزن أفعل بشرط ألا يقبل مؤنثه التاء ، وذلك نحو أحمر وأبيض وأسود وأفضل وأكبر .

وهنا ينجم سؤال : ما الحكم إذا كان الوصف على وزن يغلب وروده فى الفعل وليس على وزن أفعل ، وذلك نحو أحيمر وأسيود ، وأزيرق ، مصغَّر أحمر وأسود وأزرق ؟

الجواب : أن نحو أحيمر ، وأسيود ممنوعان من الصرف أيضا لغلبة ذلك الوزن فى الفعل نحو قول القائل : أنا أبيطر وأسيطر وأهيم .

وبناء على ذلك كان قول ابن مالك فى الألفية :

ووصف اصلى ووزن أفعلا
ممنوع تأنيث بتا كأشهلا

موضع اعتراض عند النحويين وقالوا : الأرجح قول ابن مالك نفسه فى متن الكافية :

ووصف اصلى ووزن أصلا
فى الفعل تا أنثى به لن توصلا

ليشمل القول ما كان على وزن أفعل وكذلك ما كان على وزن يغلب وروده فى الفعل .

وعلى ذلك إن ما ورد فى اللسان (سود ٢٠٩) من قوله :

«وتصغير الأسود أسيد ، وإن شئت أسيودٌ ، أى قارب السواد » إنما هو خطأ ظاهر . والصواب : أسيد وأسيود ، ممنوعين من الصرف . فهذا عصفور آخر .

الجمع بين تاء المضارعة فى أول الفعل وبين نون النسوة :

قال الحريرى فى الدرة، ينعى على العامة قولهم : الحوامل تطلقن، والحوادث تطرقن فيغلطون فيه، لأنه لايجمع فى هذا القبيل بين تاء المضارعة ونون النسوة التى هى ضمير الفاعلات ،ووجه الكلام فيه أن يلفظ بياء المضارعة ، كما قال تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه » .

هذا ما ساقه الحريرى .

وقال الخفاجى فى شرحه على الدرة ص ١٨١ : قال الزمخشرى :

فى هذه الآية قراءة غريبة ، وهى : «تتفطرن» بتاءين مع النون ونظيرها حرف روى فى نوادر ابن الأعرابى ، وهى تشممن اه . فإذا قرىء به وورد فى كلام فصحاء العرب قديما فكيف يتأتى ماذكره المصنف ، فهو من قصور الباع وقلة الاطلاع .

وأقول :قراءة التاءين مع النون من رواية يونس عن أبى عمرو فى الآية الخامسة من سورة الشورى ، كما هو عند الزمخشرى . ورواها ابن خالويه «تنفطرن» من الانفطار فى شواذ سورة الشورى من رواية يونس عن أبى عمرو أيضا .

الظرف المستقر :

يخطىء بعض المعربين حينما يقولون ظرف لغو وظرف مستقر. ويكسرون قاف «مستقر » والصواب فتحها . قال الصبان ١ : ٢٠٠ فى باب الابتداء : « وأعلم أن كلا من الظرف والجار والمجرور قسمان : لغو ومستقر بفتح القاف » .

ثم يعلل ذلك بقوله : « وسمى اللغو لغوا لخلوه من الضمير فى المتعلق ،

والمستقر مستقرا »، أى مستقرا فيه لاستقرار الضمير فيه.

اذا عرف السبب بطل العجب :

كلمة عائرة ، أومثل شارد ، يجرى كثيرا على ألسنة المعاصرين وكأنه وليد اليوم أو نتاج الأمس على حين نجده يضرب بعرق أصيل فى القدم إلى نحو تسعة قرون ماضية ، أدناها إليها ما جاء فى كتاب« المرتجل » لابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ وهو شرح على كتاب«الجمل» لعبد القاهر الجرجانى . قال فى المرتجل ١٤٥ : « التعجب معنى من المعانى التى تعرض فى النفوس ويكون مما خفى سببه وخرج عن نظرائه . وربمّا عبرّوا عن هذا المعنى بعبارة أخرى هى : التعجب يكون مما ندر من الأحكام ولم تعرف علته . فإن أخل هذا المعنى بأحد الشرطين بطل التعجب . ولهذا قال القائل ، وهو قول مستفيض فى الناس: « إذا عرف السبب بطل العجب » .

وأقول : إنى لم أجد هذا المثل فيما لدى من كتب الأمثال ولأمر ما أحببت أن تكون كلمتى اليوم على هذا الغرار الذى توخيته منذ عهد ليس بالقريب ، وهى أشتات نادرة متفرقة لأعلن أن تراثنا يزخر بالكثير من العجب وإذا عرف السبب بطل العجب ؟

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع